البحث الثالث

الصابئة المندائيون والأحناف

تنوعت المذاهب الدينية في شبه الجزيرة العربية في القرن السادس للميلاد، لكننا نستطيع أن نفرز تيارًا دينيًا توحيديًا خالصًا، تيار يرفض عبادة الأصنام والأرباب ويوحد الله جل جلاله، إنهم الأحناف أو تيار الحنفاء، تيار واضح ورصين أتباعه عدد لا يستهان به من الشعراء والخطباء والأدباء في زمن الجاهلية، وهل هم فرقة دينية؟ هل هم أقرب إلى اليهودية؟ أم النصرانية أم المندائية؟

وهناك عدد من الباحثين يؤكدون أن الأحناف كما يسمونهم أهل الجزيرة العربية كانوا موجودين قبل الميلاد، وتحصيل حاصل أنهم سبقوا الإسلام بقرون عديدة ولهم نصوص تمجد الخالق وتوحده وتعظمه مثل:

(لقد خلق الكون الله، وخلق كل ما يكون... إنه خالق السماوات والأرض والأعماق والمياه والجبال، لقد بسط الأرض ورفع السماوات، فما يتخيله فؤاده يصير على الفور، وحين يكون قد تكلم فإن حكمته تتحقق وأنها تدوم للأبد).

(إن الله هو الواحد الأبدي، إنه أبدي غير محدود، وهو يدوم إلى أبد الدهر، وقد دام طوال أزمان لا تحصى، وسوف يدوم طوال الأبدية كلها).

(إنه الله واحد وحي وما من إله آخر معه، إن الله واحد وهو الذي خلق الأشياء طرا).

(هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود).

وعندما يطلع الباحث على هكذا نصوص كتبت في أزمان قديمة، تأكد أن قسمًا منها كتب قبل الميلاد بألف عام يصاب الباحث بالدهشة، ويجد الباحث هناك تقارب بين هذه النصوص والنصوص المندائية المثبتة في الكتب الدينية للصابئة

المندائيين، زد على ذلك أن أدبيات الصابئة المندائيين وأدبيات الأحناف واحدة، إضافة لوجود رجالات سبقوا الدعوة المحمدية من الأحناف دعوا إلى التوحيد يعتبرهم عدد من المؤرخين الأوائل والمعاصرين أنهم كانوا صابئين مندائيين، فكلمة حنف تماثل لغويًا كلمة صبأ التي كانت تطلق على الصابئة المندائيين في زمن الجاهلية وفي زمن صدر الإسلام.

ويذكر لنا الباحثون أن أبا الأنبياء إبراهيم الخليل (ع) كان حنفيًا وذكر لنا عدد من الخطباء والأدباء الأولون أنهم كانوا على دين إبراهيم (ع) الذي تذكره الكتب المندائية باسم بهرام ربا (إبرهيم الكبير)، كذلك يذكره التوراة باسم بهرام ويذكره القرآن الكريم باسم إبراهيم، ورغم وجود اسم بهرام ربا في الكتب الدينية للصابئة المندائيين ولكنهم عندما يذكرون أنبيائهم يذكرون آدم وشيت وإدريس وسام ويحيى بن زكريا ويمرون على إبراهيم الخليل مرور الكرام، ولا أحد ينكر هجرة إبراهيم الخليل من مدينة أور إلى مدينة حران بسبب خلافات وانشقاقات دينية حدثت يعزيها البعض إلى مرض أصاب إبراهيم الخليل في قلفته مما استوجب اختتانه، فهاجر مع خلق من قومه إلى مدينة ماري ثم حران فتدمر فدمشق وبعدها إلى فلسطين.

ويرى د. أحمد سوسة المؤرخ العراقي أن إبراهيم الخليل هو (ياثع آيل) ومعناها (صديق الله)، وقد اتفق عرب الجاهلية أن إبراهيم الخليل كان نبيًا عظيمًا ولكنهم مع ذلك اختلفوا، فالقسم الأعظم جعلوا الأرباب وسيلة أو واسطة للتقرب من الله وآخرون رفضوا عبادة الأصنام ووحدوا الله سبحانه وتعالى وأكدوا أن العبادة يجب أن تقام لله وحده، وهؤلاء سموهم الأحناف وسموهم الصابئة أيضًا، وقد لاحظ المؤرخ جورجي كنعان في كتابه (تاريخ الله)... أن كثير من الآثار التي وجدت في المناطق الآرامية تحمل كتابات مثل (ا ل ه)، (آ ل هه) التي تحولت فيما بعد عند العرب إلى كلمة (الله).

ويذكر لنا د. جواد علي في كتاب (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) أن أمية بن أبي الصلت كان صابئيًا مندائيًا، قدم إلى المدينة والتقى بالرسول الكريم (ص) فقال له ما هذا الذي جئت به؟! فقال الرسول الحنفية دين إبراهيم، فقال إني عليه...

وسنذكر جمهرة ممن كانوا على الحنفية ويسمونهم بالصابئة لأنهم لا يعبدون الأصنام ولا يأكلون الذبائح التي تقدم قرابين أو نذور ويكثرون من الاغتسال بالماء، وجل هؤلاء كانوا من أسر معروفة ومن المثقفين الذين يجيدون القراءة والكتابة ويبحثون عن المعرفة في الجزيرة وخارجها، ولبعضهم علم باللغات الأخرى مثل المندائية والعبرية والسريانية، وللعلم فإن اللغة المندائية متطابقة تمامًا مع اللغة السريانية، كان هؤلاء الموحدون يدعون لعبادة الله الواحد الأوحد ونبذ الخرافات والأساطير وعبادة الأوثان أو الناس.

ومن هؤلاء الموحدين الذين سبقوا الدعوة المحمدية نذكر عددًا بسيطًا منهم، وخاصة الشعراء والخطباء الذين كان لهم شأن يذكر في الجاهلية أو في بداية الدعوة المحمدية ومنهم:

(قس بن ساعدة الآيادي، زيد بن عمرو بن نفيل، أمية بن أبي الصلت، ورقة بن نوفل، زهير بن أبي سلمى، طرفة بن العبد، وكيع بن زهير الأيادي، وغيرهم كثيرون)، وحقيقة الأمر لن تنصف اليهودية ولا المسيحية؛ الصابئة المندائيين، ولكن الإسلام أنصفهم في القرآن في ثلاث آيات بينات في سورة البقرة والمائدة والحج كما ذكرنا سابقًا.

والغريب في الأمر أن نبي الله يحيى بن زكريا (ع) رغم أنه عمد السيد المسيح في نهر الأردن وذكر في الإنجيل ذكرًا عابرًا، واختلقوا قصة وفاته وابتعدت كثيرًا عن القصة الحقيقية التي يذكرها الكتاب المقدس للصابئة المندائيين (الكنزا ربا)، ولهؤلاء الموحدين المذكورة أسماؤهم في أعلاه وغيرهم خطب رنانة وأشعار معلقة يتداولها الناس، ونذكر من خطبة قس بن ساعدة الأيادي في سوق عكاظ وهو يخطب من على ظهر بعيره:

(أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، آيات محكمات، مطر ونبات وآباء وأمهات وذاهب وآت، ضوء وظلام، وبر وآثام، ولباس ومركب، ومطعم ومشرب، ونجوم تمور، وبحور لا تغور، وسقف مرفوع ومهاد موضوع، وليل داج وسماء ذات أبراج، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا في المقام فأقاموا أم تركوا فناموا؟ يا معشر إياد أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ أين المعروف الذي لم يشكر والظلم الذي لم ينكر؟ يقسم قس بالله قسمًا لا أثم فيه أن لله دينًا هو أرضى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، فطوبى لمن أدركه فاتبعه وويل لمن خالفه).

أما عن زيد بن عمر بن نفيل فهذا مقطع من خطبة يعاتب بها قومه:

(يا معشر قريش أيرسل الله قطر السماء وينبت الأرض ويخلق السائبة فترعى فيه وتذبحوها لغيره، والله ما أعلم على ظهر الأرض أحد على دين إبراهيم غيري).

وقد تعرض الموحدون في الجزيرة لأنواع من المقاطعة والإيذاء رغم مكانتهم المرموقة في المجتمع بسبب دعواتهم إلى نبذ عبادة الأصنام، ودعوتهم للتوحيد، ولكي نقر أن الأحناف كانوا صابئة مندائيين وأن الصابئة المندائيين كانوا أحنافًا يجب أن ينطبق هناك شرطان اثنان:

الأول: التوحيد، الإيمان بالله الواحد الذي ليس له مثيل وليس له ولد ولا يشاركه ملكه أحد، وهذا ما يؤمن به الصابئة المندائيون والأحناف على حد سواء.

الثاني: الوجود الفعلي للصابئة المندائيين على أرض الجزيرة العربية وكثرة خطبائهم وشعرائهم ومثقفيهم الواسعي الإطلاع.

وللتقارب الكبير والموحد بين الصابئة المندائيين والأحناف يظهر جليًا وواضحًا في توحيد الله وحده لا شريك له كما أسلفنا، وظهور عدد منهم يدعون إلى

عبادة الله الواحد الأحد، والتطابق اللغوي بين كلمة صبأ وكلمة حنف وهاتان الكلمتان تعنيان من خرج عن عبادة الأوثان واتبع الدين الصحيح أي توحيد الله قبل الدعوة المحمدية، كذلك يعتبر عدد من الباحثين الأحناف والصابئة اسمين لمذهب واحد، كلاهما مندائيون، كذلك التشابه والتقارب الوثيق بين الطقوس والشعائر بين الصابئة والأحناف تدل على أنهم على مذهب واحد مثل:

- الوضوء والاغتسال والتعمد في الماء الجاري ولبسهم الملابس البيضاء.
- أداء الصلوات ثلاث مرات في اليوم.
- ذكرهم لأسماء الله (الحي، العظيم، ملك النور السامي... الخ).
- اشتراكهم في معرفة الله جل جلاله واعتقادهم أن هذه الدنيا فانية، بعدها حساب عسير في المطهرات، والخلاص يكون في العمل الصالح، وأن هناك حياة ثانية أبدية في عالم الأنوار بعد الخلاص من محطات الحساب (المطهرات للروح).
- قبلتهم واحدة هي الشمال العلوي القصي الذي يستدلون عليه بالنجم القطبي والذي ذكره أمية بن الصلت في كثير من أشعاره بالمعمم أو المسود.

لمواعيد تجري النجوم أمامه
ومعمم بحذائهن مسود
مستخفيًا وبنات نعش حوله
وعن اليمين إذا يغيب الفرقد

نفهم مما ورد عن الصابئة والأحناف أن هناك عوامل مشتركة كثيرة ومتقاربة وأدلة كثيرة تدل على أن الأحناف كانوا على ملة إبراهيم الخليل (ع) أنه اختن لأسباب مرضية، ولكون الدين المندائي في حيثياته لا يؤمن بنبي من البشر مهما كانت معجزاته، وإنما يجب أن يكون ملاكًا من ملائكة الله الصالحين، وأن إبراهيم الخليل دعا إلى عبادة الله عبادة خالصة ودون أي وسيط، ولهذا لم

يعترف الصابئة المندائيون بداية بأن يحيى بن زكريا نبيًا ، بل سموه المعلم وسموه يوهانا الواعظ وسموه يوهانا الصابغ أي (يوحنا المعمدان) ، ولكن بعد أن انتقل إلى عالم الأنوار وأصبح ملاكًا صار نبيًا ، هكذا يفسرون الأمور ، ومع كل هذا فقد غمطت اليهودية والمسيحية كثيرًا من حقوق الصابئة المندائيين ، كذلك أخطأ الصابئة المندائيون كثيرًا لأنهم لم يدونوا تاريخهم بشكل جلي وواضح مثل اليهود والنصارى والمسلمين ، ربما بسبب الاضطهاد والقهر ولجوئهم مكرهين للهجرة إلى عمق الأهوار حماية لأنفسهم وكتبهم الدينية ، وإنقاذ ما تبقى لهم.

رغم أن الإسلام كما أسلفنا أنصفهم وذكرهم في القرآن الكريم من الموحدين ، وكان لهم شأنًا يذكر زمن الخلافة العباسية وتبوءوا مواقع مهمة في البلاط والدولة وبرز منهم الشعراء والأدباء والعلماء والمؤرخون والأطباء وعلماء الفلك والحساب وغيرها من العلوم.

وهناك من الباحثين يذكرون أن الصابئة تعتقد وتؤمن بأن الملائكة وسطاء بينهم وبين الله جل جلاله ، وأن الله جل علاه يأمر الملائكة المسبحين لجلالته فتنفذ الأمر ، بينما عرب الجاهلية اتخذت من الأصنام والأنصاب وسيلة بينها وبين الله تتضرع بواسطتها إلى الله ، فهي لا تعبدها ولكنها تعبد الله من خلالها ، أما الأحناف وحسب ما ورد في كتاب أبكار السقاف (الدين في شبه الجزيرة العربية) هم أتباع إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل ، فهم يتعبدون إلى الله عز وجل دون وسيط مهما كان هذا الوسيط.

(هو الله واحد لا شريك له ولا معين ولا ظهير ، متصف بصفات الكمال من الحياة والمقدرة والإرادة والعلم ، موصوف بصفات العلم ، من السمع والبصر لا تشبه ذاته ولا تضاهي صفاته الصفات ، ليس كمثله شيء منزه ، وهو الواحد الذي لا شريك له ، المتفرد بملك ملكوت السماء والأرض تفردًا إليه تعود أسباب الضرر والنفع).

وهذه النصوص نفسها موجودة في الكتب المندائية خاصة في الكتاب المقدس الكنزا ربا، وتذكر الكاتبة والباحثة أبكار السقاف أن الصابئة بدأت من هنا نسبة إلى صابي بن شيت بن نوح، وصابي يعني بالبابلية (النجم)، وتذكر أن الأحناف والصابئة عاشوا في شبه الجزيرة العربية لا اختلاف بينهم في الجوهر ولا بالتعبد ولا بالتوحيد ولا بأي شكل من أشكال العبادة، وهو دين عقلاني لا يخلو من العاطفة.

(إن الله الساكن بالسماء إنما ذو كينونة سامية، ومن ثم تعالى المتعالي عن أن يتصل بالكون والكائنات إلا بواسطة وسطاء تقف في المرتبة وسط بين الألوهية والبشر وعلى ذلك يكون من المحال الاتصال بالله مباشرة إلا عن طريق الملائكة).

صحيح أن الصابئة المندائيين يذكرون ملائكة الله بخير لكنها لا تمثل حاجزًا بينهم وبين الله لأنهم يتضرعون إلى الله مباشرة ويدعون الله فيقولون يا هيي (يا حي) ويسبحونه ويعظمونه ويمجدونه بشكل مباشر، وكذلك يذكرون الملائكة الصالحين الكاملين بكل خير.

وحقيقة الأمر أن العرب يفرقون بين الحقيقة والخيال، فعندما يعبدون الله ويريدون التقرب منه يتخيلون الله وكأنهم يرونه من خلال شيء يعقلونه مثل الغرانيق أو الملائكة أو الأولياء الصالحين أو الأئمة وهكذا وليومنا هذا، إن الله جل جلاله عندما أوحى للرسول الكريم محمد (ص) أرسل له جبريل يخبره النبأ العظيم ولم يخاطب الرسول مباشرة، فما بالك الإنسان إذا وجد وسيطًا يخاطب الله من خلاله وخاصة إذا كان ملاكًا من ملائكة الرب الكاملين، وصحيح أن الله واحد لا يشاركه في ملكه أحد، لكن لا أحد ينكر وجود الملائكة الصالحين في عالم الأنوار، وأنهم يسبحون خالقهم ويصلون له ويعظمونه ويأتمرون بأمره.

وأن الصابئة والأحناف يعبدون الله عن عقيدة واحدة تنحصر في الاعتراف بألوهية الله إلهًا مسكنه السماء، محفوفًا بحاشية من الملائكة التي خلقها من نفس

عنصره النوراني، وهناك من الأحناف من اعترض على اتخاذ الملائكة شفعاء وزلفى إلى الله لاغيًا بينه وبين الله وساطة أي وسيط إلا خلجات النفس ومواجد القلب، لكنهما لم يختلفا إطلاقًا في الماهية وفي التعبير وفي العبادة لما يجيش في الداخل من إحساس فطري لوجود قوة حكمية تهيمن على الكون والكائنات، أضف إلى ذلك ما أنزله الله من الصحف الأولى على آدم وشيت وإبراهيم وسام بن نوح إدريس ويحيى بن زكريا، أمرهم بتوحيد الله وحده لا شريك له وليس له والد ولا ولد ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

وتذكر الباحثة أبكار السقاف شيئًا من الشعر الجاهلي للموحد الصابئي زهير بن أبي سلمى:

ألا ليـــت شـــعري : هـــل يـــرى النـــاسُ مـــا أرى

مـــن الأمْـــرِ وْ يَبـــدو لهـــمْ مـــا بَـــدا لِيَـــا ؟

أرى أنَ النّـــــــاسَ تَغنـــــــى نُفُوسُـــــــهُمْ

وأمـــــــوالهمْ ، ولا أرَى الـــــــدهرَ فانيـــــــا

وكثيرة هي القصائد العصماء التي تمجد الله وتدعوا له في زمن الجاهلية، من شعر زهير بن أبي سلمى وأمية بن الصلت وطرفة بن العبد وغيرهم، وهذا الخطيب قس بن ساعدة مرة أخرى يقول:

هـــــو الله الواحـــــد المعبـــــود

لـــــيس بوالـــــد ولا مولـــــود !

ومن كثرة تعظيم الصابئة والأحناف الله وتجميده سرت في أهل قريش كالنار في الهشيم الدعوة لله جل جلاله، فبعث الله نبيًا من بينهم وأوحى له بواسطة جبرائيل آيات بينات منحت الرسول الكريم محمد (ص) القوة والثبات ليبدأ دعوته منطلقًا من قريش.

ولكن مع هذا كله وللتوضيح بالدقة والأمانة، أن الدين الصابئي المندائي نشأ في العالم العلوي وأن الحي العظيم أمر بخلق آدم وحواء وأنزل الملاك النوراني المبجل منداد هيي ليزرع الإيمان في قلوبهم وعقولهم ويعلمهم الوصايا والأسماء كلها ليكونا مندائيين يعلمون ذريتهم الوصايا والتعاليم التي أنزلها الحي العظيم على أنبيائهم من آدم رأس السلالة البشرية إلى يهيا يوهنا (يحيى بن زكريا) خاتم أنبياء الصابئة المندائيين.

إن الدين الصابئي المندائي لا يختلف عن الدين الحنيف في الجوهر ، ولكن هناك اختلاف في صور التعميد وبعض شكليات العبادة مع وجود وسطاء (الملائكة الأثريين) بين الخالق والمخلوق، ويدون لنا بعض الباحثين الأوائل هذا النص:

(إن الله، الإله الساكن في السماء العلوي إنما ذو كينونة سامية، ومن ثم تعالى المتعالي عن أن يتصل بالكون بالكائنات إلا بواسطة وسطاء تقف في المرتبة وسط بين الألوهية والبشر ، وعلى ذلك يكون من المحال الاتصال بالله إلا عن طريق من خلق من الملائكة).

أضف لذلك أن الحي العظيم جعل عالمًا وسطًا بين عالم الأنوار وعالمنا لكي لا يكون هناك أي اتصال مباشر بين عالم الأنوار وعالم البشر يسمى عالم الحق (مشوني كشطة) أي عالم العهد.

ومثلما اتخذ الأعراب الأصنام (الغرانيق) في زمن الجاهلية يتشفعون بها زلفى إلى الله، اتخذ بعض القبائل العربية الأكثر تطورًا وعقلانية الكواكب والنجوم والشمس والقمر وسطاء يتزلفون بها شفاعة إلى الله، فقبيلة بني أسد تتشفع إلى عطارد وقبائل لخم تتشفع إلى المشترى وقبائل أم القرى تتشفع إلى زحل لأجيال عديدة يؤمنون أن هذه الكواكب فيها حياة تسكنها الملائكة، وأن لها نفس جديرة بالتعظيم ، ولكنها أقل مكانة من الحي العظيم الذي خلقها ، بسبب استحالة الاقتراب من الله مباشرة إلا بواسطة وسطاء، ولهذا يعتبر الملائكة شفعاء لأن

لهم مساكن هناك ، ولما كان من الضروري وجود نقطة دالة يتوجه لها المصلون فقد اتخذ النجم القطبي دالة للتوجه إلى الشمال العلوي القصي بمعنى ترفع رأسك للأعلى لأن الحي موجود في كل مكان (آلمه دنهورا) أي عالم الأنوار ، في ما مضى من الزمان لعدم توفر أجهزة دلالة مثل البوصلة وغيرها.

إن الملائكة تقف موقفًا وسطًا بين الحي العظيم والبشرية ، وقد سماهم العرب الأرباب وسموا الحي العظيم رب الأرباب ، ويذهب بعض الباحثين أن الدين الحنيف والدين الصابئي لا يختلفان في أسس العبادة الجوهرية من الالتقاء عند عقيدة واحدة تنحصر في الاعتراف بالحي العظيم الذي يسكن في الشمال العلوي القصي من عالم الأنوار محاطًا بعدد عظيم من الملائكة الأثريين الذي يأتمرون بأمره والتي خلقها من عالم الأنوار مع وجود اختلاف بين الصابئة المندائيين والأحناف ، فالدين المندائي يرى أنه لابد من وجود وسطاء في الاتجاه إلى الخالق ، يعترض الدين الحنيف على اتخاذ الملائكة شفعاء زلفى إلى الله لاغيًا بين أتباعه وخالقهم أي وساطة إلا خلجات النفس ومواجد القلب.

لقد بنى نبي الله إبراهيم الكعبة وهذا الاسم بابلي يعني (النجم) وجعله بيت الله في الأرض وجعل إدارة هذا البيت لابنه إسماعيل وذريته ، وكان الأحناف يعتقدون أن لله بيت آخر في السماء ، هذا البيت (الكعبة) شبيهًا له ولكن في الأرض.

وهناك عدد من الباحثين الأوائل يقولون إن بيت الله في بادئ الأمر بناه نبي الله شيتل (شيت بن آدم) ، ولكن هذا البيت جرفه الطوفان بعهد نوح إلى أن أعاد بناءه نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل ، وهذه الرواية يرويها المؤرخون المسلمون لكن لا ذكر لها في العهد القديم المرجع الأساسي عن النبي إبراهيم ، ولا تذكرها الكتب الدينية المندائية ، والمهم هنا أن نعرف أن العرب العاربة والمستعربة كانت تعرف هذا البيت ويؤمنون بوجود خالق للكون يعبدونه ، وأن الدين

الحنيف نشأ في الجزيرة العربية بين قبائل جرهم كنتيجة حتمية للعقيدة الإلهية المستمدة من الدين الصابئي المندائي جذر التوحيد الأول الذي يؤمن أتباعه أن الحي العظيم (الله) واحد لا شريك له في ملكه، متصف بصفات الكمال من الحياة والقدرة والإرادة والعلم، موصوف بصفات العلم من السمع والبصر لا تشبه ذاته الذوات ولا تضاهي صفاته الصفات، وهو واحد لا شريك له انبعث من ذاته (من نافشي أفرش)، وهو ملك النور السامي والحق كله كما يذكر ذلك كتاب الكنزا ربا والكتب السماوية المنزلة وأنبياء الله عليهم السلام أجمعين.

بسم الحي العظيم

أسبحك ربي بقلب طاهر
أيها الحي العظيم
المتميز عن عوالم النور
الغني من كل شيء
الغني فوق كل شيء
نسألك الشفاء والظفر
وهداية الجنان
وهداية السمع واللسان
ونسألك الرحمة والغفران
آمين يا ربنا يا رب العالمين
والحي المزكي

افتتاحية الكنزا ربا اليمين

ما هي علاقة الصابئين المندائيين
بإبراهيم الخليل أبي المؤمنين التوحيديين؟

كتب الأستاذ المتمرس الدكتور يوسف قوزي، رئيس هيئة اللغة السريانية في المجمع العلمي، والذي ترجم كتاب الكنز العظيم مع الأستاذ الدكتور صبيح مدلول السهيري من المندائية إلى العربية، بإشراف اللجنة العُليا للترجمة:

تمهيد:

في بحثنا هذا الموجز نسبيًا والمركز سوف نحاول أن الإجابة على سؤال عنوانه باكتشافنا العلاقة القائمة بالفعل بين أبينا إبراهيم أبي المؤمنين الموحدين بالله وبين الصابئين المندائيين الذين أغفلوا ذكر اسمه تمامًا (وربما تعمدًا) في سائر كتبهم المقدسة، وفي تراثهم المدون أيضًا لا سيما في كتاب (جينزا ربا/ جينزا ربا)، الذي سبق لنا أن قمنا بترجمته من أصله المندائي المخطوط ونقله إلى اللغة العربية، وقد حدث هذا عندهم لإبراهيم الشهير دون غيره من الآباء التوراتيين والكتابيين الذين سبقوه أو لحقوه من المعروفين المذكورين لديهم من أمثال أبينا آدم وأمنا حواء، وهابيل (هيبيل) وشيت (شيتيل) وآنوش ونوح أبو الطوفان، ومعمد المسيح يوحنا المعمدان (يهيا يوهانا)...

وسوف نبني بحثنا هذا وآراءنا فيه مستندين إلى وثائق مكتوبة وقديمة للغاية أوردتها لنا أسفار من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ونعتمد خصوصًا وأكثر على ما جاء في السفر الأول من التوراة: إنها أسفار التكوين والتثنية ونحميا والأناجيل الأربعة ورسالتا بولس الرسول إلى المؤمنين من أهل روما الذين كانوا وثنيين، وإلى العبرانيين الذين هم أصلاً من اليهود... كما أننا في خطة بحثنا هذا سنفرد له بابين اثنين هما:

أولاً: العلاقة القومية والإثنية بين الصابئين المندائيين وإبراهيم الخليل.
ثانيًا: العلاقة الدينية بين الصابئين المندائيين وإبراهيم الخليل.

وختامًا سوف نقوم باستخلاص النتائج التي نكون قد توصلنا إليها من خلال بحثنا وتقصينا فيه بدراستنا هذه لما هو مرتبط بالحقائق والوثائق التاريخية المدونة والمتعلقة بكل ذلك.

أولاً: العلاقة القومية والإثنية بين الصابئين المندائيين وإبراهيم الخليل

إن جميع الحقائق والوثائق التاريخية الوحيدة المدونة التي حدثتنا عن أبينا إبراهيم الخليل وعن أصله وفصله وردت في أسفار التوراة العبرية التي خلفها لنا اليهود العبريون تاريخًا مقدسًا لديانتهم التوحيدية، لا سيما في سفر التكوين المعروف لديهم بأولى كلماته ألا وهي (بُراشية) في البدء، وأيضًا في قليل مما جاء في سفر تثنية الاشتراع من ذكر إبراهيم هو موصوف فيه بأنه كان (آراميا متنقلاً)... وإن الأساتذة العلماء المختصين في علم كتابة التوراة ودراستها في الوقت الحاضر يقسمون سفر التكوين إلى قسمين اثنين رئيسيين:

– القسم الأول منه: وهو يتكون من أحد عشر فصلاً (الفصول ١– ١١) تتحدث عن وجود كوننا هذا الذي كان فوضويًا وعن خلقه وترتيبه وتنظيمه من قبل الله لكيما يهيئه ويضع فيه الإنسان الأول آدم وزوجته حواء المخلوقين على صورته كمثاله، وهؤلاء الأساتذة المختصون يعتبرون القصص والروايات والشخصيات الوارد ذكرها في هذه الفصول أساطير وخرافات هي خارج نطاق التاريخ البشري المكتوب في السجلات والوثائق المقبولة علميًا لدى بني الإنسان.

– القسم الثاني: وهو يبتدئ من الفصل الثاني عشر إلى نهاية الفصل الخمسين من سفر التكوين، فهو تاريخي حقًا ويبدأ بسرد قصص آباء الشعب اليهودي الذي اعتبره الكتبة العبريون شعب الله المختار، وفي فصوله هذه الطويلة نحن

نجد ونقرأ ثلاث حلقات من الروايات والأحداث التاريخية لعموم الشعب العبري فعلاً:

* **الحلقة الأولى:** وهي الفصول ١٢- ٢٥، تبدأ بقصة أبينا إبراهيم الخليل أول المؤمنين الموحدين بالله، وقد كان إبراهيم معاصرًا للملك البابلي الشهير حمورابي (١٧٥٠ – ١٧٠٠ ق.م)، وقد ورد اسمه في المدونات الأكدية هكذا "أبرام"، أي بمعنى أبو جمهور، وقد ظن ولا يزال الكثيرون يظنون خطأ أن أصل إبراهيم الخليل الآرامي كان من جنوب العراق، ولكن أحداث حياته وشواهدها الجغرافية كلها في مجرياتها العائلية من زواج ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أبي الأسباط اليهودية الاثنى عشر، تؤكد أنه هو وعشيرته وسلالته عاشوا في الأصل في أقصى شماله في أور الكلديين التي هي مدينة الرُها / أوربي الآرامية السريانية الواقعة في تركيا الحالية، والتي منها انتقل إلى مدينة حران / القريبة منها نسبيًا والواقعة على نهر الفرات، وذلك قبل أن يستقر أخيرًا ونهائيًا في مدينة حبرون / الخليل في أرض كنعان التي هي فلسطين الحالية.

ولمدينة حران الداخلية / هاران جاويت؛ ذكريات مهمة جدًا لدى الصابئين المندائيين، إذ إليها كان قد انتقل عدد كبير من الناصورائيين المندائيين من أورشليم القدس على أثر اضطهادهم خلال القرن الأول للميلاد من قبل اليهود وربما المتنصرين منهم، هذا ما يظنه الصابئون المندائيون.

* **الحلقة الثانية:** في الفصول ٢٦- ٣٦؛ تتحدث عن سيرة حياة ابنيه (إسماعيل باختصار كبير) وإسحاق وحفيديه (عيسو باختصار كبير) ويعقوب إسرائيل أبي الأسباط اليهودية الاثنى عشر.

* **الحلقة الثالثة والأخيرة:** في الفصول ٣٧- ٥٠[١]؛ تروي لنا سيرة يوسف بن يعقوب وحياته شبه الملكية في مصر.

١- الآباء اليسوعيون الكتاب المقدس، بيروت ١٩٩١، ص ٦٥.

وفي فصول سفر التكوين التي تتحدث عن سيرة أبينا إبراهيم، نكتشف أن أصله لم يكن كنعانيًا عبرانيًا بل نهرينيًا آراميا حقيقيًا، وذلك أن سفر التكوين قبل أن يتحدث عن إبراهيم الخليل، يقول لنا ما يلي:

(وهذه سلالة تارح – أي والد أبرام / إبراهيم – تارح ولد أبرام وناحور وهاران، وهاران ولد لوط، ومات هاران قبل أبيه تارح في مسقط رأسه أور الطلديين) سفر التكوين ١١: ٣٧-٢٨... وقد لاحظ علماء التوراة المعاصرون وجود مدينتين قديمتين تحملان اسم أور في بلاد ما بين النهرين، الأولى التي هي أقدم نشأة، تقع في جنوب العراق القديم في محافظة الناصرية، وهي أور السومريين، والسومريون قوم مختلفون تمامًا في الجنس واللغة عن البابليين والكلديين كما هو معروف، والثانية التي قد تكون أحدث نشأة في التاريخ، تقع في شمال بلاد ما بين النهرين، وهي أور الكلديين[١]، وهذه المدينة بذاتها قد كان السريانيون الوثنيون سبق لهم أن اسموها أورى/ أورهاي، وتبعهم في ذلك السريانيون المسيحيون منذ بدايات التاريخ الميلادي، أما العرب فقد سموها الرها، ولما احتل الأتراك العثمانيون بلادنا، صحفوا اسمها وسموها أورفا، وفي رحلة عودتنا من دراستنا العليا المزدوجة: اللغات السامية في المعهد الاستشراقي وتاريخ مراسيم طقس العماد السرياني في كلية اللاهوت بجامعة لوفان في بلجيكا، نحن شخصيًا قد مررنا بسيارتنا الخاصة بأطلالها الباكية والمبكية في يوم ١٣ آب ١٩٧٥م، وتوقفنا فيها قليلاً نذرف الدموع الحارة على زوال أمجاد ملك علوم جدودنا الميامين المندثر، وطمر تراثهم العلمي والأدبي الزاخر الذي كتب تحت كثبانها الحالمة.

هذا ويستمر سفر التكوين في كلامه عن سيرة أبينا إبراهيم قائلاً: (وأخذ تارح أبرام ابنه ولوط بن هاران ابن ابنه هاران، وساراي كنته امرأة أبرام ابنه، فخرج بهم من أور الكلديين ليذهبوا إلى أرض كنعان، فجاءوا إلى حران وأقاموا هناك ومات تارح في حران)... "سفر التكوين: ١١: ٣١- ٣٢".

١- فاضل عبد الواحد علي، من ألواح سومر إلى التقارو، بغداد ١٩٨٧٩، ص ٢٣٩ – ١١١.

ما هي يا ترى المدة الزمنية التي قضاها تارح في حران قبل وفاته فيها؟ في الحقيقة لسنا ندري ولا نعلم شيئًا عن ذلك، إلا أننا نعلم علم اليقين أن أهل أور الكلديين وأهل حاران أولئك كانوا جميعًا قومًا آراميين من جنس سامي واحد، ويتكلمون معًا ويتعايشون ويتفاهمون بلغة واحدة هي الآرامية، ولذلك استطاعوا البقاء والإقامة في ما بين أهل حاران فترة من الزمان، قبل مواصلة ترحالهم إلى أرض كنعان، لكن الله عز شأنه وجل جلاله، لم يشأ لأبينا إبراهيم المؤمن الموحد به أن يبقى مقيمًا على المدى في حاران ما بين أبناء وطنه وجنسه الوثنيين.

ولذلك يعود سفر التكوين ويقول لنا عنه: (وقال الرب لأبرام انطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فانطلق أبرام كما قال له الرب، وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة حين خرج من حران ، فأخذ أبرام ساراي (سارة) امرأته ولوط ابن أخيه وجميع اموالهما التي اقتنياها والنفوس التي امتلكاها في حران ، وخرجوا ليمضوا إلى أرض كنعان... ورحل أبرام تسيارًا وترحالاً صوب النقب)... سفر التكوين: ١٢، ١و ٤-٥ و ٩.

ومن صحراء النقب وبسبب القحط والمجاعة نزل أبرام إلى مصر حيث لاقى فيها مشاكل ومنافع أيضًا ، وذلك بسبب جمال امرأته ساراي التي كان قد أوصاها أن تقول إنها أخته (سفر التكوين: ١٣، ١٠ – ٢٠)، وبالفعل لقد كانت ساراي الحسناء الجميلة أخته وزوجته في وقت واحد معًا ، ففي سفر التكوين وعلى لسان أبينا إبراهيم نحن نقرأ ما يلي: (وفي الحقيقة هي أختي ابنة أبي وليست ابنة أمي فصارت امرأة لي، فلما رحلني الله من بيت أبي قلت لها: هذا ما تتفضلين به علي حيثما جئنا فقولي في إنه أخي) (**سفر التكوين: ١٣ ، ١٠-٢٠**) ولذلك بهذا وبسلامة: (صعد أبرام من مصر هو وامرأته وكل ما له ولوط معه إلى النقب، وكان أبرام غنيًا جدًا بالماشية والفضة والذهب) (**سفر التكوين: ١٣ ، ١-٢**) كما أن سفر تثنية الاشتراع يؤكد لنا أن إبراهيم الخليل وخلال تنقلاته

مثل البدو الرحل قد نزل إلى مصر برجال قليلين وصعد منها أمة، فنحن نقرأ في هذا السفر التوراتي ما يأتي: (كان أبي آراميا متنقلاً).

كما أننا نقرأ ما يأتي: (وكانت كلمة الرب إلى أبرام في الرؤيا قائلاً: لا تخف يا أبرام إنا نرسل لك وأجرك عظيم جدًا... ثم أخرجه إلى خارج وقال له: انظر إلى السماء واحص النجوم إن استطعت أن تحصيها وقال له: هكذا يكون نسلك، فآمن بالرب وحسب له ذلك برًا، وقال له: أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلديين لأعطيك هذه الأرض ميراثًا لك، (سفر التكوين: ١٥، ١- ٧).

كما أن سفر نحميا يؤكد هذا الأمر بعينه، حيث يقول لنا ما يلي: "أنت هو الرب الإله الذي اخترت أبرام، وأخرجته من أور الكلديين، وجعلت اسمه إبراهيم، وقد وجدت قلبه أمينًا أمامك، وقطعت معه عهدًا على أن تعطيه أرض الكنعانيين، وقد حققت وعدك لأنك بار" (سفر نحميا: ٩، ٧- ١٠)، ومع هذا كله فإن الشيخ إبراهيم الذي كان قد بلغ من العمر عتيًا من بعد ولادة ابنه إسماعيل أبي العرب من جاريته هاجر المصرية، قد رزق بابنه إسحاق الذي هو ابن المواعيد الإلهية من امرأته ساراي العاقر والمسنة، وبعد نشأته وبلوغه أرسل كبير غلمانه إليعازر إلى حاران قائلاً له: "بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحاق" (سفر التكوين: ٢٤، ٤).

وقبل الدخول في تفاصيل زواج ابنه إسحاق من قريبته رفقة بنت لابان الآرامي لابد لنا من أن نذكر بأن إبراهيم من بعد وفاة امرأته ساراي تزوج امرأة أخرى اسمها قطورة، ورزق منها جملة بنين أشهرهم هو مدين أبو المدينيين، ولما فاضت روح إبراهيم كان عمره مائة وخمسًا وسبعين سنة، فدفنه ابناه إسماعيل وإسحاق في مغارة مكفيلة في حبرون، حيث كان هو نفسه قد دفن ساراي امرأته (**سفر التكوين: ٢٥ ، ١-١٠**)[١].

١- ا لأب لموس رب س يو، التاريخ المس دق، قصة بنا ي لله، القاهرة ١٩٥١ – ص ٤٧.

ولنر الآن قصة زواج إسحاق: حيث إن إليعازر "قام ومضى إلى آرام النهرين، وهي مدينة ناحور" (الذي هو أخو إبراهيم) الي هي حاران بعينها محل إقامته تاريخ والد إبراهيم ووفاته مثلما جاء في رواية سفر التكوين (١١، ٣١، ٢٤، ١٠) وقد سبق لنا أن دوننا ذلك أعلاه، وحينما وصل إليعازر إلى مدينة حاران الآرامية، واقترب من عين الماء فيها، رأى عليها فتاة حسناء وهي عذراء جميلة جدًا، لم يعرفها رجل، فخطبها لابن سيده إسحاق: (إنها رفقة التي وُلدت لبتوئيل بن ملكة، امرأة ناحور أخي إبراهيم" (سفر التكوين: ٢٤، ١٥- ١٦)، وكان لرفقة أخ اسمه لابان (سفر التكوين: ٢٤، ٢٩)، وإن قصة يعقوب مع خاله لابان الآرامي وأحداثها التي جرت في حاران في ما بعد معروفة هي لدى الكل، حيث إنه اضطر إلى أن يخدمه أربع عشرة سنة طويلة، بمثابة مهر سباعي السنين عن كل واحدة من ابنتيه: ليئا وراحيل، لأنه كان قد أحب راحيل ابنته الصغرى، والعرف الآرامي عن الحارانيين ما كان يجيز تزويج الصغرى قبل الكبرى.

وعندما افترقا برحيل يعقوب من لدن خاله من أجل العودة إلى موطن ذويه الجديد، أي والديه المقيمين في أرض كنعان، تعاهدا أمام آلهتهما على البقاء أمينين على الوفاء والمحبة فأقاما نصبًا تذكاريًا لذلك، سماه يعقوب بالعبرية (جلعد)، ولابان سماه بالآرامية (يجر سدوة)، وهو يعني في اللغتين "نصب الشهادة" (سفر التكوين: ٢٩ – ٣١، ٤٧)، ولحدث بسيط ومهم للغاية اضطر لابان في اليوم التالي إلى اللحاق بصهره حين أراد التعبد لآلهته المنزلية ولم يجدها، إذ كانت صغيرته راحيل قد أخذتها لها معها، وخبأتها طي رزمة ثيابها، وجلست فوقها مدعية أنها في عادة النساء ليكلا يكتشف أبوها أمرها والآلهة الصغيرة.

من خلال قراءتنا أحداث هذه القصة الواردة في نصوص التوراة، نكتشف أن أبانا إبراهيم الخليل بتسياره وترحاله المتواصلين من أجل تلبية مناداة الله إياه للوصول إلى أرض كنعان أرض الميعاد، كان لا يزال في أعماق نفسه محتفظًا

بالحنين إلى موطنه الأصلي في أور الكلديين وحاران، وإلى أهله وأقاربه فيهما من أبناء جنسه الآراميين وقد خلف هذا الحنين لابنه إسحاق الذي جعله يتزوج من رفقة قريبته الحارانية الآرامية وكذلك فعل في ما بعد حفيده يعقوب، الذي هو سمي إسرائيل أبو الأسباط اليهودية الاثنى عشر، إذ ذهب إلى حاران وأقام فيها ردحًا من الزمان، يعمل بجد ونشاط لكي ما يتزوج من ابنتي خاله لابان الآرامي الحاراني كما مر بنا أعلاه.

وهكذا إذن كان آباء اليهود وأجدادهم الثلاثة الكبار إبراهيم وإسحاق ويعقوب من أصل ومن دم آرامي صرف، فلماذا إذن هم الآن يتنكرون لنا ويعادوننا نحن الآراميين من السريانيين الرهاويين والمندائيين الحارانيين وغيرنا من ذوي الأصول بعينها؟! لأننا نحن وهم في الأصل الواحد البعيد أشقاء رهاويون وحارانيون، شاءوا أم أبوا، واللغتان السريانية والمندائية آراميتان أختان هما وقريبتان كثيرًا من أختهما اللغة العبرية لغة اليهود التوراتية المقدسة، وحاليًا مدينة حاران موقعها في تركيا، أطلالها تطل على نهر الفرات وبالقرب من الحدود السورية، ونتيجة لكل هذه الأمور يجب علينا أن نعترف بوجود علاقة قومية وإثنية ولغوية ما بين أصل أبينا إبراهيم الآرامي الرهاوي الحاراني والصابئين المندائيين الحارانيين.

ثانيًا : العلاقة الدينية بين الصابئين المندائيين وإبراهيم الخليل :

ولئن كان الآباء التوراتيون الأولون بدءًا بآدم وحواء وهابيل وشيت وآنوش ونوح، جميعهم يؤمنون بالله الواحد الحق، إلا أن أغلب البشر من بعدهم زاغوا عن طريق الحق والصواب، وراحوا يعبدون الأصنام ويسجدون للأوثان التي هم ابتدعوها وبأيديهم صنعوها، إلى أن جاء أبونا إبراهيم الخليل الذي هو أول من نادى بعبادة إله واحد فقط لا غيره هو الحق وحده، ومن قبل إبراهيم كان وضع البشر في عبادة الآلهة مزريًا ومتعددًا، وهو لا يزال كذلك إلى يومنا

هذا، وذلك بالرغم من توحيده من قبل أبينا إبراهيم والأنبياء والأولياء الصالحين من بني الإنسان، ومحاولات المستقيمين منهم من مؤسسي الأديان المختلفة.

كلنا نعلم ونؤمن أن الله الحق واحد هو، وروح محض خالق جميع الكائنات المرئية وغير المرئية الموجودة في هذا الكون الفسيح شبه اللامحدود، الذي هو خلقه من العدم وبكلمة روحية منه، ولئن كان الكثيرون يقولون بوجود أديان سماوية وأديان أرضية، إلا أن الحقيقة الناصعة هي أن الله لا دين له لأنه لا يخضع ولا يدين لأي كائن مهما كان، لذلك فإن جميع الأديان التي ظهرت على أرضنا هي من صنع البشر ذكورًا وإناثًا، ومن أجل أن يعبدوه ويشكروه على أفضاله ونعمه عليهم، ويصلوا إليه في نهاية حياتهم الأرضية المؤقتة، ويعيشوا معه روحيًا خالدين في محبته والتغني بحمده وتمجيده في نعيمه السماوي، هذا لأنه سبحانه قد وضع في روح الإنسان وعقله وضميره القدرة وحرية الإرادة في اختيار كل ما يشاء من الأعمال: إن خيرًا وإن شرًا، لذلك فهو يعاقب أو يكافأ في الآخرة على حسن خير أعماله بالنعيم أو على قبح شرها بالجحيم.

وقد وعد الله أبانا إبراهيم وعودًا ثلاثة:

– الأول أن يُعطي نسله ميراثًا أبديًا أرض كنعان بأسرها (وهي أرض تغربه) التي أصبحت أرض الميعاد.

– الثاني أن يجعله أبًا لأمم كثيرة ولشعب روحاني مختار لا يُحصى عدده، لأنه سيكون في كثرته مثل نجوم السماء ورمال شاطئ البحر.

– والثالث أن يتبارك بإبراهيم أبو المؤمنين جميع شعوب الأرض قاطبة، بدعوتهم إلى الإيمان وإلى معرفة الله الحق[1].

ففي سفر التكوين من كلام الله نقرأ ما يلي: (ها أنا أجعل عهدي معك فتكون أبًا لعدد كبير من الأمم، ولن يكون اسمك أبرام بعد اليوم بل سيكون إبراهيم لأنني جعلتك أبا عدد كبير من الأمم) "سفر التكوين: ١٧، ٤ –٥ ".

١- ا لأب لموس ربسيو، المصدر السابق نفسه ص ٣٥.

وقد تميز عهد الله هذا لإبراهيم بوجوب الختان الجسدي، حيث أمره قائلاً: (هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسلك من بعدك، يختن كل ذكر منكم، تختنون في لحم قلفتكم، ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم، وابن ثمانية أيام يختن كل ذكر منكم من جيل إلى جيل) "سفر التكوين: ١٧، ١٢ – ١٠"، (وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما ختن لحم قلفته، وكان إسماعيل ابن ثلاثة عشر سنة حين ختن لحم قلفته، في ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم وإسماعيل ابنه وجميع رجال بيته، ختنوا معه) "سفر التكوين: ١٧، ٢٤ – ٢٧).

وفي رواية مندائية نُقلت إلينا شفاهًا من قبل صديقينا المندائيين العزيزين حمودي مطشر الهلالي ونزار صكر الحيدر؛ أن بهرام ربا لديهم هو يمثل أبانا إبراهيم الخليل نفسه، والصابئون المندائيون لم يذكروا اسمه في أي واحد من كتبهم المقدسة، لكونه كان قد قبل أن يختن جسده هو شخصيًا مع أجساد جميع ذكور أهل بيته، وأوصى بالقيام بتلك الممارسة على الدوام من جيل إلى جيل، وإلى يومنا هذا لدى أحفاده من يهود أسباط بني إسرائيل ومن العرب الإسماعيليين ولا سيما المسلمين في ما بعد، وكل الصابئين المندائيين يعتقدون أن قصة ختان إبراهيم غير صحيحة وليست حقيقة، وإنما اليهود هم الذين لفقوها في شريعتهم من أجل تبرير سنة عملية اختتانهم هم واختتان المسلمين مثلهم، بغية أن يجعلوه أبًا لديانتهم التوحيدية، لكونه الأب الروحي الأول لسائر المؤمنين الموحدين بالله جميعًا[1].

ونحن أيضًا بدورنا نميل إلى هذا الرأي الصابئي المندائي بأن اليهود الذكور الذين كتبوا التوراة بعد ما لا يقل عن مرور ألف سنة على وفاة أبينا إبراهيم الخليل، ووجدوا أنفسهم مختونين في أرض كنعان (ربما بتأثير الفلسطينيين الأقدمين الذين كانوا يمارسون القرصنة وقدموا من جزر بحر إيجة إلى سفوح

١- هذا هو ما رواه لنا وأكده صديقنا المندائي الفاضل نزار صكر الحيدر، فله منا الشكر الجزيل على هذه المعلومة القيمة.

جبال أرض كنعان المطلة على البحر الأبيض المتوسط)، أرادوا أن يجدوا تبريرًا دينيًا وحلاً شرعيًا مرضيًا لممارستهم تلك المثيرة للجنس والمخالفة لطبيعة خلق الإنسان، فنسبوا واقع ختانهم إلى أبينا إبراهيم، وهل يعقل يا ناس أن يرضى ويقبل أبونا البار المؤمن إبراهيم الخليل بالاختتان وهو في عمر التاسعة والتسعين سنة، وقد بلغ من العمر عتيًا؟! لذلك نحن أيضًا نشكك في صحة هذه الرواية التوراتية وملائمة واقعيتها.

فالقديس بولس الرسول يقول في كتاب العهد الجديد؛ وفي رسالته إلى أهل روما بالذات ما يلي: (ونحن نرى أن الإنسان يتبرر بالإيمان بمعزل عن أعمال الشريعة أو يكون الله إله اليهود وحدهم؟ أما هو إله الوثنين أيضًا؟ بلى هو إله الوثنين أيضًا، لأن الله واحد بالإيمان يبرر المختون، وبالإيمان يبرر الأقلف، أفنبطل الشريعة بالإيمان؟ معاذ الله! لا بل نثبت الشريعة) (روما: ٣، ٢٨ – ٣١)، (فماذا نقول في جدنا إبراهيم؟ ماذا نال من جهة الجسد؟ فلو نال إبراهيم البر بالأعمال لكان له سبيل إلى الافتخار بذلك، ولكن ليس عند الله، فماذا يقول الكتاب؟ إن إبراهيم آمن بالله، فحسب له ذلك برًا) (سفر التكوين: ١٥، ٦)... فمن قام بعمل لا تُحسب أجرته نعمة بل حقًا، في حين أن الذي لا يقوم بعمل بل يؤمن بمن يبرر الكافر فإيمانه يحسب برًا.

وهكذا يُشيد داود بسعادة الإنسان الذي ينسب الله إليه البر بمعزل عن الأعمال: (طوبى للذين عفي عن آثامهم وغفرت خطاياهم! طوبى للرجل الذي لا يُحاسبه الرب على خطيئته) "مزمور: ٣٢، ١ –٢)، أفهذه الطوبى للمختونين هي فقط أن للقلف أيضًا؟ فنحن نقول: (إن الإيمان حسب لإبراهيم برًا)، ولكن كيف حسب له؟ أفي الختان أم في القلف؟ وقد تلقى سنة الختان خاتمًا للبر الذي يأتي من الإيمان وهو أقلف، فأصبح أبًا لجميع المؤمنين الذين في القلف لكي ينسب إليهم البر، وأبًا لأهل الختان الذين ليسوا من أهل الختان فحسب بل يقتفون أيضًا آثار الإيمان الذي كان عليه أبونا إبراهيم وهو في القلف، فالوعد الذي وعده إبراهيم أو نسله بأن يرث العالم لا يعود إلى الشريعة، بل إلى بر الإيمان،

فلو كان الورثة أهل الشريعة لأبطل الإيمان ونقض الوعد، لأن الشريعة تجلب الغضب، وحيث لا تكون شريعة لا تكون معصية، ولذلك فالميراث يحصل بالإيمان ليكون على سبيل النعمة ويبقى الوعد جاريًا على نسل إبراهيم كله، لا على من ينتمون إلى الشريعة فحسب، بل على كم ينتمون إلى إيمان إبراهيم أيضًا، وهو أب لنا جميعًا... هو أب عند الذي به آمن، عند الله الذي يحيي الأموات ويدعو إلى الوجود غير الموجود، آمن راجيًا على غير رجاء فأصبح أبًا لعدد كبير من الأمم، ولم يضعف في إيمانه حين رأى أن بدنه قد مات، (وكان قد شارف على المائة سنة)، وأن رحم سارة قد ماتت أيضًا، ففي وعد الله لم يتردد، بلقواه إيمانه فمجد الله متيقنًا أن الله قادر على إنجاز ما وعد به، فلهذا حسب له ذلك برًا، وليس من أجله وحده كتب "حسب له"، بل من أجلنا نحن الذين يُحسب لنا الإيمان برًا لأننا نؤمن... (روما: ٤، ١-٢٤).

وقد وقعت حادثة رواها لنا سفر أعمال الرسل في العهد الجديد، وكان ذلك في مدينة أنطاكية: (ونزل أناس من اليهودية وأخذوا يُلقنون الإخوة فيقولون: إذا لم تختتنوا على سُنة موسى فلا تستطيعون أن تنالوا الخلاص، فوقع بينهم وبين بولس وبرنابا خلاف وجدال شديد، فلما وصلوا إلى أورشليم رحبت بهم الكنيسة والرسل، فقام منهم أناس من الذين كانوا على مذهب الفرسيين ثم آمنوا، فقالوا: يجب ختن الوثنيين وتوصيتهم بالحفاظ على شريعة موسى، فاجتمع الرسل والشيوخ، وبعد جدال طويل قام بطرس وقال لهم: أيها الإخوة تعلمون أن الله اختار منذ الأيام الأولى أن يسمع الوثنيون من فمي كلمة البشارة ويؤمنوا، فلم يُفرق بيننا وبينهم في شيء، وقد طهر قلوبهم بالإيمان؟ فلماذا تجربون الله الآن بأن تجعلوا على أعناق التلاميذ نيرًا لم يقوَ آباؤنا ولا نحن قوينا على حمله، فنحن نؤمن أننا بنعمة الرب يسوع ننال الخلاص كما ينال الخلاص هؤلاء أيضًا، فسكت الجميع وأخذوا يستمعون إلى برنابا وبولس يرويان لهم ما أجرى الله عن أيديهما من الآيات والأعاجيب بين الوثنيين)... (أعمال الرسل: ١٦، ١-١٢).

كما أن بولس الرسول يستأنف كلامه في رسالته إلى العبرانيين قائلاً: (الإيمان قوام الأمور التي ترجى وبرهان الحقائق التي لا ترى، ويفضله شهد للأقدمين، بالإيمان ندرك أن العالمين أنشئت بكلمة الله، حتى إن ما يرى أنشئ مما لا يرى، بالإيمان قرب هابيل لله ذبيحة أفضل من ذبيحة قايين، بالإيمان أخذ أخنوخ لئلا يرى الموت، وبغير الإيمان يستحيل نيل رضا الله، لأنه يجب على الذي يتقرب إلى الله أن يؤمن بأنه موجود ويجازي الذي يبتغونه، بالإيمان أوحيت إلى نوح أمور لم تكن وقتئذ مرئية، بالإيمان لبى إبراهيم الدعوة، فخرج إلى بلد قرر له أن يناله ميراثًا، خرج وهو لا يدري إلى أين يتوجه، بالإيمان نزل في أرض الميعاد نزوله في أرض غريبة وأقام في الخيام مع إسحاق ويعقوب الشريكين في الميراث الموعود عينه، بالإيمان نالت سارة القوة على إنشاء نسل، وقد تجاوزت السن ذلك بأنها عدت الذي وعد أمينًا، ولذلك ولد من رجل واحد، وقد قارب الموت نسل كنجوم السماء كثرة وكالرمل الذي على شاطئ البحر، وهو لا يُحصى (سفر التكوين: ٢٢- ١٧).

وفي الإيمان مات أولئك جميعًا ولم يحصلوا على المواعد بل رأوها وحبوها عن بعد، واعترفوا أنهم غرباء نزلاء في الأرض، فإن الذين يقولون هذا القول يدلون على أنهم يسعون إلى وطن ولو كانوا يفكرون في الوطن الذي خرجوا منه لكان لهم الوقت للرجوع إليه، في حين أنهم يرغبون في وطن أفضل، أعني الوطن السماوي بالإيمان قرب إبراهيم وإسحاق، لما امتحن فكان يقرب ابنه الوحيد، وقد تلقى المواعد، وكان قد قيل له: بإسحاق سيكون لك نسل يحمل اسمك (سفر التكوين: ٢١- ١٢)، فقد اعتقد أن الله قادر حتى على أن يقيم من بين الموات (روما: ٤، ١٧)، لذلك استرده وفي هذا رمز، هذا كله من كلام القديس بولس الرسول الذي كتبه في رسالته. (العبرانيين: ١١، ١٢- ١٩).

ونحن جميعًا نعلم أن الصابئة المندائيين يوحدون الله في دينهم (السماوي)، وهم يتقربون إليه ويؤمنون أنه موجود ويجازيهم هم في عالم النور لأنهم يبتغونه،

وقد شهد لهم بذلك حتى القرآن العربي : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [1]

كما أن الكاتب السرياني الشرقي الشهير تيودور بركوني (القرن السابع للميلاد)، الذي كان معاصرًا لخليفة المسلمين عمر بن الخطاب ، ترك لنا كتابًا ضخمًا أسماه اسكوليون ، عرض في فصله الحادي عشر موجزًا للهرطقات والبدع والمذاهب المسيحية التي قامت داخل الديانة المسيحية حتى أيام زمانه ، ويبدو أنه قد اقتبس ذلك من كتاب القديس إبيفانوس (٤٣٨ – ٤٩٥ م)، وأضاف إليها بدعًا ومذاهب أخرى سريانية مسيحية في الشرق كانت لا تزال باقية وقائمة بأصحابها وأتباعها في أيامه ، مثل المانوية (أي الأيزدية) والكانتية والمندائية ، وإن المستشرق الفرنسي هـــ. بونيون قام بنشر النص السرياني مع الترجمة الفرنسية للفصل الحادي عشر من كتاب إسكوليون في كتابه الموسوم : Inscriptions mandaites des coupes de khouabir/ نقوش مندائية لأكواب الخوابير (الذي طبعه في باريس سنة ١٨٩٨ م في الصفحات ١٠٥– ٢٢٢)[2].

ومن المعروف أن الانتماء الديني اليهودي والإسلامي قائم على عملية الختان الجسدي ، في حين الانتماء الديني المسيحي والصابئي قائم هو على التعميد بالغطس والاغتسال في الماء الطاهر المقدس بصلوات خاصة ، والخلاف الوحيد بين العماد المسيحي والمندائي أن المسيحيين لا يتعمدون إلا مرة واحدة في حياتهم من أجل محو الخطيئة الأصلية وخطاياهم الأخرى إذا كانوا كبار بالغين، بينما العماد المندائي يتكرر مرارًا في الماء الجاري ، يردنا ، لمغفرة الخطايا وفي مناسبات مختلفة ومتعددة وبمقتضى مراحل الحياة لديهم.

١ـ القرآن الكريم : سورة البقرة ـلآلآية ٦٢

٢ـ الأب ألبير أبونا، أجب اللغة الآرامية، بيروت ١٩٧٠، ص ٣٠٣ـ ٣٠٦ ؛ ه بو نيون، النقوش المندائية في أكواب الخوابير، باريس ٨٩٨ ص ١٠٥ـ ٢٣٢ : نحن الأستاذ الدكتور يوسف فوزي كنا قد ترجمنا ونقلنا هذا الكتاب إلى اللغة العربية من أصله الفرنسي والمندائي والسرياني، لصالح الشيخ المند ائي هيثم مهدي سعيد خلال سنة ١٩٩٣ م، وقد ضاعت ترجمتنا تلك مع الأسف الشديد.

الخاتمة:

من خلال بحثنا هذا استطعنا أن نبرهن وبما لا يقبل الشك أن أبانا إبراهيم الخليل – ولو أن إخواننا الصابئين المندائيين أهملوا ذكر اسمه نهائيًا في كتبهم المقدسة وذلك لامتعاضهم منه لأنه قبل أن يختن نفسه في جسده هو شخصيًا، وكذلك في ختن أجساد جميع ذكور أهل بيته – له بهم علاقتان قديمتان ومتينتان؛ الأولى هي العلاقة القومية والاثنية التي تقوم على الجنس والدم واللسان الآرامي، أما العلاقة الثانية التي له بهم أيضًا فهي العلاقة الدينية الموحدة بالله، فضلاً عن علاقة الإيمان به روحيًا هو وحده الواحد الأحد، وبعيدًا عن العبادة المادية للأصنام والأوثان المصنوعة من قبل البشر، وهكذا نأمل أن نكون قد وُفقنا في نيل رضا إخوتنا الصابئين المندائيين في كتابتنا هذا البحث الذي اهتدينا به إلى أن إبراهيم الخليل هو جد آرامي مشترك لكلينا نحن السريانيين المسيحيين وهم الصابئين المندائيين معًا على السواء.

تعقيب:

الأستاذ الدكتور يوسف قوزي أعرفه عن قرب وسبق أن عملت معه أثناء إشرافي على الترجمة الحرفية لكتاب الكنزا ربا باعتباري رئيس اللجنة المشرفة... وأنا أكن لهذا الرجل كل الاحترام والتقدير لكفاءته العلمية وصدقه وأمانته، ولكن من العيب أن أقول إنه محايد، لأنه كان يعتبر أن المندائية فرقة منشقة عن المسيحية، ولاحظوا أنه يعتبر نبي الله يوحنا المعمدان كما يسميه ساعي المسيح، بالوقت الذي يوحنا (يهيا يهانا) أو يحيى بن زكريا عمد السيد المسيح أي طهره ومنحه حياة جديدة.

أما موضوع نبي الله إبراهيم الخليل فهناك عدد من الباحثين يعتبرونه أسطورة لعدم وجود وثائق أو آثار أركلوجية تدل عليه في زمانه، وإنما قصص وأمثال وعبر وذكر في كتب الأديان مثل التوراة والقرآن، أما ما مذكور في الكنزا ربا

فهو ذكر لبهرام ربا والذي يعتبره الصابئة المندائيون أحد الملائكة المبجلين وليس نبي الله إبراهيم، وهناك خلاف في الرأي.

وهناك من يؤكد أنه نبي الله المرسل الذي ولد في أور في أرض الرافدين، ودعا الناس إلى عبادة الله عبادة خالصة دون الأوثان ودون الملائكة الأثريين، وبسبب تنكره لعبادة الأصنام اختلف معه أعوان الجزيرة ومنهم من وافقه واتبعه، وأسس الدين الحنيف وتمت تسميتهم في الجزيرة بالأحناف أتباع إبراهيم الخليل، واختلف المندائيون معه لأنه دعاهم لعبادة الحي العظيم دون وسيط أي بدون الملائكة، وقالوا له إن الحي العظيم يبلغ رسالته بواسطة ملاك، فكيف لا يكون لنا وسيطًا من الملائكة بيننا وبين خالقنا، ثم إنك إنسان مثلنا تأكل وتشرب وتتوجع وتشيخ وتموت فكيف تكون نبيًا أن النبي يجب أن يكون ملاكًا.

هاجر إبراهيم الخليل مع خلق من أتباعه إلى مدينة حران التي يسكنها عدد من الصابئة المندائيين المقيمين في مدينة حران وهؤلاء لم يكونوا متنصرين كما يذكر الدكتور قوزي بل كانوا مندائيين، ولكن هناك بعض الباحثين يذكرون عندما اشتد الاضطهاد ادعى قسم منهم ظاهريًا أنهم تهودوا أي اتبعوا الدين اليهودي خوفًا على أنفسهم من القتل، وقسم فعلاً لحماية أرواحهم وعوائلهم اتبعوا الدين اليهودي وبعد زوال الخطر ارتدوا إلى مندائيتهم فسموهم اليهوطايي بمعنى (النازلين) أو الخطائين.

لم يكن كل سكنة حران وثنيين كما يذكر الأستاذ قوزي بل كان هناك المندائيون الموحدون أهل العلم والمعرفة والذين يسميهم الباحثون صابئة حران، أما القول إن سارة هي زوجة وأخت إبراهيم لأنها من أبيه وليست من أمه... فالدين يعتبرها أخته ولكنها ليست شقيقته ولو كانت صحيح أنها ابنة أبيه فالزواج منها حرام ويذكر لنا الأستاذ قوزي في بحثه أن هنالك علاقة قومية ولغوية بين إبراهيم الخليل والصابئين المندائيين الحرانيين، فهذا أمر طبيعي لأن إبراهيم

آرامي والمندائيون آراميون يتكلمون نفس اللهجة الآرامية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يذكر لنا بعض الباحثين أن كلمة حنيف تعني كلمة صبأ أي غطس في الماء بمعنى الصباغة، وأن الاختلاف بين الأحناف والمندائيين مثل اختلاف الكاثوليك عن البروتستانت.

إن آدم وحواء رأسًا السلالة البشرية كانا مندائيين وكانا جذر التوحيد الأول لأن الحي العظيم علمهم بواسطة الملاك منداهيي التعاليم والوصايا المندائية، إذن كما يؤكد لنا الأستاذ قوزي (أن البشرية بداية كانت موحدة على يد آدم وهابيل وشيت وأنوش ونوح، إلا أن أغلب البشر بعدهم زاغوا عن طريق الحق والصواب)... وهذا يفسر لنا أسباب أن السومريين والبابليين والأكديين وغيرهم من الأقوام لماذا ابتدعوا الآلهة، ولماذا راحت بعدهم أقوام تعبد الأوثان وتتقرب إلى الحي العظيم بها زلفى لغرض الشفاعة كوسطاء بينهم وبين الله، لأن الأعراب بدو الصحراء يريدون شيء يلمسوه ويروه، لأن الروحانيات لا تلمس ولا ترى بالعين.

ويقول الأستاذ قوزي إن الأديان من صنع البشر، وبنفس الوقت يستشهد بالوعود التي وردت في التوراة وعهود الرب الثلاثة لإبراهيم الخليل، فكيف إذن أن البشر صنعوا الأديان؟ وكيف رب القدرة يعطي الوعود والعهود لأنبيائه المرسلين ومنهم إبراهيم كما تذكر يا أستاذي الفاضل...

كذلك يذكر أستاذنا الجليل قوزي أن عضوي اللجنة المشرفة على الترجمة حمودي ونزار قالا له إن إبراهيم هو نفسه بهرام ربا، وليس لدينا دليل على ذلك لأن بهرام ربا المذكور في الكنزا ربا ملاك أثيري كما يفسِّرها لنا رجال الدين المندائيون والله أعلم، والمهم في الأمر أن نبي الله إبراهيم كان مؤمناً بوحدانية الله، وأن الصابئة المندائيين كانوا من الموحدين، وهناك كثير من الوشائج التي تربط إبراهيم بالمندائيين منها القومية الآرامية واللغة والتوحيد.

المراجع

* محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، بيرون ١٩٨٨.

– صبأ يصبأ وصبؤ صبأ وصبوءًا عليهم: خرج من دين إلى آخر ، تدين بدين الصابئين فهو صابئ ، ويجمع صابئون وصابئة ، (الأب لويس شيخو ، المنجد في اللغة، بيروت ١٩٦٠، ص ٤١٣).

– خنف ، نخنوف ونخنف : حَنَفَ... صبأ ، ارتد من دين إلى الوثنيةن وخنفًا : هو الوثني أو الصابئ... (يعقوب أوجين منا ، دليل الراغبين في لغة الآراميين، الموصل ١٩٠٠ – ص ٢٥١).